حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي
معربة بقلم المعلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

١٣

ان معرفة الجميل من اجلّ الفضائل واعلاها والواجب ان تكون منزّهة عن شين المنفعة غير ان الأثرة كثيرًا ما تفسد هذه الفضيلة الحسوبة من اعمال الحاسن البشرية في القلب

ولا ريب ان معرفة الناس امر متعسر لا بل متعذر في ايام الرخاء وامتداد بساط الهناء فاذا اتاك الحظ ووفقك الى الدرجات العالية فلا تنتظر من اكفائك غير المبادرة لقضاء رغائبك والاستعداد للعمل باشارتك. فهل تعذهم في هذا الحال اصدقاء لك وهل تستطيع اعتمادًا على بقاء ولائهم راسخ الاركان وهل يمكنك ان تنتظر منهم معرفة الجميل. كلاَّ ثم كلاَّ لانهُ اذا غفلت عنك السعادة يومًا واشتغل عنك الحظ بغيرك لا ترى من هؤلاء الناس الذين كنت تحسبهم اولياء غير إعراض وصدّ ولو كنت قد اغرقتهم في بحر فواضلك او تعرّضت للاخطار حبًا بهم وما ذلك الّا لأنهم ما عادوا يرجون منك خيرًا كما انك ما عدت اهلًا لتفاتهم واساليب خداعهم. وبناء عليه فهم يتركونك حاملين بجورهم الى اشخاص آخرين

غير ان عبد الله الراعي الذي مرّت عليك حكايته لم يكن من هذا الصنف من الناس فانهُ حالما درى بسجن الاب يوحنا في قصر القليعات طفق يأتي كل صباح فيجلس قريبًا من باب القصر متجسسًا الاخبار عن المحبوس الكريم الذي احسن اليه وبالرغم عن الاهانات والشتائم التي يسمعها من الحراس لم يكن يملّ من الوقوف عند الباب محمولًا على هذا كله بعاطفة معرفة الجميل

غير ان احد الحراس شفق عليه يومًا وقال لهُ: انك تضيع وقتك ايها المسكين عبثًا لان الاب يوحنا ليس هنا

— بحياة ابيك لا تغشني بل قل لي الحقيقة بتمامها

— الامر كما قلت لك بالتمام لان الاب يوحنا ترك القليعات من ايام عديدة

— واين هو الآن ؟

— كذاك سؤلًا فقد اخبرتك بما فوق اللازم . ثم اغلق الباب في وجه الراعي المسكين وهو يقول : ارشك هذا الفلاح الغليظ ان يعرضني الخطر ولكن من حسن الحظ انهُ لم يسعني احد

فلما علم عبد الله ان المحسن اليهِ خرج من القصر رأى من الواجب عليهِ ان يهتم بنجاته من ايدي مضطهديه لاعتقادهِ ان كلّ ما اصاب الاب يوحنا من سخط جوسلين كان بسبب انتصاره لهُ ودفاعه عن حقوقه . فعقد العزم لادراك غايتهِ على خطة صعبة المراس وعرة الملتمس تحول دون البلوغ اليها عوائق واخطار . واهل الراعي المسكين لم يفطن لشيء من ذلك او انهُ فطن ولم يشأ ان يرجع عن مطلبه لانهُ كان يرى اعز شيء لديه السعي في خلاص ذاك الرجل البار الذي اصطنع اليهِ

وكان بعد مدَّة أن انتشر الخبر بين اهالي الناحية بان الاب يوحنا نُقل الى الجانب الثاني من الجبل في جهة مدينة حماة ولم يكن يشقّ على عبد الله ان يشخص الى حماة او الى ابعد منها اذا اقتضت الحاجة غير انهُ لم يكن يعرف المدينة المذكورة بل غاية ما كان يعلم لمَّا كان في قرية مريمين يرعى المواشي عند احد كبار المشايخ النصيريَّة ان هذه المدينة هي على مسيرة يوم من القرية المذكورة

فاذ ذاك حمل عصاه وتناول زوادة من الخبز المرقوق ولفَّها بشديلهِ وتزوَّد بهِ ثم ودَّع امرأته وسار على بركة الله ينشد مطلبه . وكانت امرأته عالمةً بمراده فلم تتعرَّض لهُ وكيف تصدّه وما كان لها ان تنسى انَّها لولا وساطة الاب يوحنا لما نجت من مخالب جوسلين الرجل الشرس

وقد عرَّج عبد الله في سفره على قرى عين الشمس والسنديانة وعين الخلاقين وشميسة وفندارة وكان في كل منها يبحث عن الاب يوحنا بحثًا دقيقًا فكان الكل يجاوبونه بانهم لم يروا لهُ وجهًا . وعلى فرض انهم شاهدوه ما كان احد ليتجرأ على إخباره مخافة ان يعرّض نفسه لسخط جوسلين وعقابه

ولما كان سائرًا في الغابة المتسعة الكائنة بين قريتي بيت الشمس والسنديانة نجا دون ان يعلم من خطر عظيم . فان الغابة المذكورة كانت في القديم كما هي في ايامنا الحاضرة ملجأ للصوص وقطاع الطرق . فبينما هو يمشي في شعب ضيق مترعًا بانشودة

تعلّمها قبلًا من الرعاة النصيريّة دون ان يعرف شيئًا من معناها وهي:

يا خليليّ إن تكون عليلا ظاميّ القلب والفؤاد غليلا
اشرب الخمر انّ فيها شفاء حيث كان مزاجها زنجبيلا
واذا ما شربتها وهي صرفٌ كل داء يعود عنك رحيلا
انّها في كؤوسها تتلالا في الدياجي تعدّها قنديلا
ان موسى الكليم لمّا رآها في دجا اللّيل والركام عطيلا
قال انّي آنستُ جذوة نارٍ جانب الطور في ضياء شعيلا
ايها العاذل البليد فكفّ السلوم عني وأمهلني قليلا
ما ترى الكاس كيف يجلى بجنح م الليل بين الندمان بالترسيلا(١

وكان وراء الاشجار التي على حاشية الطريق نصيريّان من قطاع السبيل يرقبان كل حركة وايديهما على مقابض سيوفهما فلما شاهدا عبد الله قال احدهما لرفيقه:

— ها قد اتانا الصيد

— فقال الآخر انهُ لصيد خفيف لا يستحق ان نبلّ ايدينا بدمه. ولو لم يكن كيسهُ فارغًا لما كنت تراهُ يمشي بطيئًا فرحًا فهو بلا ريب نصراني من رعاة الماشية في هذا الجوار لا يجدينا سلبهُ نفعًا

— هب انهُ كما تقول. فبودّي لو انحرهُ نحرًا مجازاة لهُ على قلة حظنا في هذا اليوم. آه يالهُ يومًا مشؤومًا لم أرَ انحس منهُ قطّ الظهر ولم يمرّ في هذا الطريق احد من المسافرين

— ألا تعلم ان هذا اللعين جوسلين مذ حبس الاب يوحنا دخل الزوّار طريق حصن سليمان. فاذا كنت تريد ان تشفي غليلك من احد فاشفهِ من جوسلين. ولكن.. أنصت...

— ها أنا منصت... انهُ يُغنّي

— الا تسمع كلامهُ؟ اليس هو من شعر مولانا الشيخ الحصيبي او الشيخ صارم؟

— اي والله الحق معك هو أخ لنا.....! وحسنًا فعلتَ بتوقيفي عن إغماد السيف في قلبه ولولا ذلك لكنت قتلتُ ابن ديني وارتكبت المحارم

ثم ان اللصين خرجا من وراء الاشجار فحياهما عبد الله فردّا عليهِ التحيّة وسألاهُ

(١) الباكورة السليمانية (ص ٧٠)

عن المكان الذي يقصدهُ فقال : قرية مريمين لمشاهدة الشيخ خضر

— اذًا تذهب الى العيد ؟

— دون ريب . قال هذا ولم يعلم اي شيء هو العيد المحكي عنهُ ولكن سنرى انهُ سيعلمهُ عن قريب

وفي مساء النهار وصل الى بعرين (١ وهي مدينة صغيرة واقعة في منحدر رابية وفي اعلاها قلعة ضخمة من بناء الصليبيين وفي اسفل القلعة اقبية كثيرة كانت مخصصة بالسجون فدخلها محتجًا بزيارة احد معارفه وبعد ان جال في كل انحائها خرج متأكدًا ان الاب يوحنا غير محبوس فيها . غير انهُ لم يقنط بل استأنف المسير قاصدًا مريمين من امهات قرى النصيرية

١٤

فبعد نزوله من جبل بعرين وصل الى السهل الكائنة فيهِ قرية وافنية التي كانت في ايام الرومانيين بلدة مزهرة ناجحة غير انها اليوم خراب يباب لا يأويها سوى البوم . وفي جنوبيها الغربي سلسلة جبال معتدلة الارتفاع ليس فيها نبتة خضراء يستريح البصر اليها ووراءها قرية الطاعونة يأهلها قوم من الفقراء المناكيد وعندها يتخدد السهل . وكان في تلك الايام قفرًا صامتًا لا يُسمع فيهِ صوت ولا فيهِ ديّار لانَّ ايام الحصاد كانت قد انتهت

والواقف في اول السهل يشاهد من بعيد صفًا من الروابي وهو جبل اللكام ثمَّ صفًا آخر اقلّ ارتفاعًا يدعى جبل الحلو وفي سفحهِ خضرة نضرة تعارض بمنظرها قحولة السهل وتلتذّ العين بمشاهدتها وهي غوطة مريمين التي تُعدّ من اقدم المدن السوريّة وقد ردّد التاريخ ذكرها في القرن الرابع عشر قبل المسيح (٢ . امَّا الآن فصارت مركزًا للزراعة لا يخلو من بعض الاهميّة

وقد وصل اليهِ عبد الله الراعي عند مغيب الشمس ولم يكن في ملابسهِ ولا في منطقهِ شيء يفرقهُ عن النصيريّة فانهُ لكثرة تردّدهِ عليهم كان قد تعلّم لهجتهم وصار يستعمل كل اصطلاحاتهم ويقول مثلهم في كل امر « اي والله ولا والله » . وكثيرًا ما قبل التوبيخات والقوانين الصارمة على هذا القسم الباطل من معرّفهِ الاب جرمانوس

(١ ياقوت والمقريزي الخ (٢ الكتابات المصرية القديمة ، دوشو : رحلة سورية الخ

الساكن في حصن سليمان. وكان يتلقى ذلك كلهُ بخضوع واخبات غير ان العادة السيئة قد تغلّبت عليهِ فعادت فيهِ كطبيعة ثانية بحيث انهُ ما اجتمع مرة مع الرعاة النصيريّة الّا اقبل على الحلف نظيرهم وقد اتصل ايضاً الى معرفة العلامات التي يتعارف بها اهل هذه الشيعة

فلمّا وصل عبد الله في مدخل القرية لاقى ولداً صغيرًا فسألهُ عن الشيخ خضر مولاه السابق فاجابهُ انّ الشيخ قد خرج من منزلهِ للاحتفاء بالعيد

الّا انّ الراعي لم يحترز من هذه الكلمة الاخيرة وظنّ انها تعني احتفالًا اعتياديًا كعرس او نحوه فمن ثمّ شكر الولد النصيري وسار الى الجهة التي دلّهُ عليها

وكان قد دخل الليل وتقنذ واعتكرت الظلمة فضلّ الراعي في طرق القرية وكثيرًا ما زلّت قدمهُ في الوحول واوشك ان يقع في المياه الجارية على جوانب السبيل او في وسطهِ. وتعذّر عليهِ الاستعلام عن مقام الشيخ لان كل البيوت التي مرّ عليها كانت موصدةً لا يظهر فيها نور قنديل حتى يتخيّل من يراها انها مقفرة لا ساكن فيها فاخذهُ العجب من هذا السكوت الغير المألوف في مثل تلك الساعة الغير المتقدّمة من الليل وانتهى بهِ السير اخيرًا الى الطرف الجنوبي من البلدة. وبينما هو يهمّ بان يعود على اعقابهِ راجعاً اذ لمح بيتاً منيرًا كان قد فُتح بابهُ في تلك الساعة لدخول بعض الواردين اليهِ

فقال عبد الله في نفسهِ: قد نجوت والحمد لله من المصاعب فهذا هو «المنزول» دون ريب ابيت فيهِ الليلة وغدًا اسعى في مشاهدة الشيخ خضر. ثم انهُ تقدّم الى ناحية البيت المذكور فلمّا وصل قريباً من الباب تصدى لهُ رجلان من الاشداء متسنّمة الظلام عن مشاهدتها والقى عليهِ احدهما المسائل الآتية:

— شاش عتك كم دور ؟

اما عبد الله فبهت من السؤال المذكور ولجّجهُ ما لبث ان عاد اليهِ الانتباه وفطن انهُ ثانٍ وانّ البيت الذي توهمهُ «منزولًا» هو الخلوة التي يعقد فيها النصيريّة اجتماعاتهم السريّة وان العيد الذي ظنهُ عرساً هو عبارة عن احتفال ديني فتجلّد وعلم انهُ اذا اظهر عدم معرفة فهو مقتول لا محالة لانّ النصيريّة كما هو معروف لا يشفقون على كل

غريب عنهم يحاول كشف اسرار ديانتهم ولذلك تظاهر بكونهِ نصيريًا واجاب على السؤال بقولهِ :

— ستة عشر دورًا

فقال النصيري : ان عطش عمك فمن اين تسقيه ؟

— من عين العلويَّة

— ان ضاع عمك فاين تلاقيه ؟

— بالنسبة

— اربعة واربعتين وثلاثة واثنين وقدرهم مرَّتين في دينك اين ؟

— بالمسافرة (١

ودامت هذه المحاورة بين الاثنين نحوًا من ثلاث دقائق . غير ان عبد الله لمَّا كان قد اظهر في بادئ الامر تردُّدًا رأى الثاني من البوَّابين الذي كان ساكتًا ان الامتحان غير كافٍ فمن ثمَّ القى على عبد الله مسائل أخرى وهي :

لي قريب فهل تعرفهُ ؟

— ما اسمهُ ؟

— اسمهُ الحسين

— هو ابن حمدان بلا ريب

— بل هو الشيخ الحصيبي

ومن حسن حظ عبد الله ان السائل وقف عند هذا الحد ولو انهُ اطال السؤال لانكشف الامر وقُتل الراعي المسكين لا محالة ولذلك سُرّي عنهُ ما اعتراهُ من الغم عند ما اذن لهُ بالدخول قائلًا ادخل الآن ايها الاخ باسم « عين ميم سين » فانهُ ما بقي احد غيرك لاجل الشروع في العيد

وكان عبد الله يعرف ان « عين ميم سين » هي الحروف الابتدائية من اسماء الاقانيم الثلاثة التي يتألَّف منها ثالوث النصيريَّة (٢ . وهب انهُ يجهلها لم يكن ليجترئ في ذلك الظرف الحرج على الاستفهام عنها . غير انهُ كان يسأل نفسهُ كيف تكون خاتمة هذا الحادث معهُ

(١) الباكورة السليمانية ودوسو تاريخ وديانة النصيرية (٢) الباكورة

وفي الوقت نفسهِ فُتح الباب السري ودخل عبد الله الى قاعة فسيحة منارة بعدد من الشموع فرأى النصيريَّة قاعدين الحُبي (عاقدين اليدين فوق الركبتين) وكلهم سكوت وفي آخرهم كان قاعدًا ايضًا مثل قعودهم ثلاثة اشخاص متوشحون بثلابس بيضاء من اقدامهم الى رؤوسهم. وكان هؤلاء الثلاثة لا يتميَّزون فقط بثلابسهم بل ايضًا بضخامة عمائمهم البيضاء بينما ان سائر الحاضرين كانوا جميعًا لابسين كوفيات وعاقدين فوقها العقالات

ونظر عبد الله في الثلاثة المذكورين فرأى ان اوسطهم هو الشيخ خضر الذي كان يقصدهُ فارتعد وارتجف. ثمَّ انَّ الشيخ الحكمي عنهُ ارسل نظرة غضب على عبد الله فزاد عبد الله خوفًا وقال في نفسهِ: الليلة القى منيَّتي هنا. وكان كلما مرَّت دقيقة يتوقَّع ان ينقضَّ عليهِ النصيريَّة ويعاقبوهُ على جسارتهِ. غير انهُ رأى ان لا بدَّ من التجلد فجلس في أخريات النـاس وجعل يرقب بطرف عينهِ حركات الحاضرين ليعمل مثلها

(ستأتي البقية)

تاريخ فنّ الطباعة في المشرق

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعيّ (تابع لما سبق)

فنّ الطباعة في الشام (تابع)

٤ المطابع في بيروت (تتمَّة)

١٢ (مطبعة جمعية الفنون) هذه اوَّل مطبعة اسلامية ظهرت في بيروت وكان متولي انشائها صاحب الفضل والهمَّة سعادتلو عبد القادر افندي قبَّاني في غرَّة ١٢٩٢ه (١٨٧٤) وكان نال امتيازها باسم «مطبعة جمعيَّة الفنون» واستحضر ادوات الطباعة اولًا من لندرة. وفي ربيع الاول سنة ١٢٩٢ اصدر فيها جريدته «ثمرات الفنون» فيكون قد مرَّ عليها اليوم نيف و٢٦ سنة في خدمة الوطن. وفي سنة ١٨٨٩ زاد عليها آلة يصحُّ تدويرها على البخار ابتاعها من الخواجا يرجي الفرزوزي. وقد طُبع في هذه المطبعة بعض تأليفات نسرد اسماء ما نعرف منها على حسب تاريخها: